ISSN: 2321-7928

تفسير تدبر القرآن

(تفسير سورة النساء)

- الشيخ أمين أحسن الإصلاحي[1]

ترجمة من الأردوية: د. أورنك زيب الأعظمي[2]

﴿29﴾

تفسير سورة النساء

20. تفسير الآيات (44-57)

انتهى باب إصلاح المجتمع إلى الآية الـ43 كما أشرنا إليه. والآن يأتي ذكر ردّ الفعل الذي جاء من قبل معارضي هذه الإصلاحات كما يُبَشَّرُ المسلمون بملك كبير ينتجه كمال المجتمع وتمامه. وممن تناوله أولًا من المعارضين اليهودُ لأنهم بصفتهم من أهل الكتاب ينبغي لهم أن يؤيدوا هذه الإصلاحات ولكن من سوء الحظ أنهم أوّل معارضيها وأشدّهم فذكرت شرور معارضتهم وخوطبوا مباشرة وهُدِّدوا بأنهم إذا لم يؤمنوا بهذا الكتاب فخان لهم أن يلعن عليهم كمثل أصحاب السبت وأن تطمس وجوههم.

ثم نُبِّهوا على عقائدهم وشعائرهم الشركية وعلى زعمهم أنهم اعتبروا أنفسهم أمة مصطفاة فيزعمون أنهم ولد أولياء الله ولو ساءت عقائدهم وشاهت شعائرهم فيدخلون الجنة بدون أيّ حساب ولا نقاش فقال إنّ زعمهم الباطل هذا الذي هو افتراء على الله قد ألهاهم عن مسؤوليات الإيمان والعمل عليه فأخرجوا أنفسهم عن نطاق العبودية إلى نطاق الألوهية والمعبودية.

---

[1] كاتب ومفسر هندي له مؤلفات عديدة ترجم البعض منها إلى العربية والإنجليزية

[2] مدير تحرير المجلة وأستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الملية الإسلامية، نيو دلهي، الهند

ثم أبدى عن عجبه أنهم يدّعون التفّضل والقدسية في جانب وفي جانب آخر بلغوا من الدناءة أسفلها فيؤمنون بالجبت والطاغوت وهم أهل الكتاب وعموا في بغض المسلمين إلى حدّ يعتبرون الكفّار والمشركين أهدى من المسلمين أعدائهم فقال إذا أصبحوا عميانًا لحسدهم فليوتوا عميانًا فقد فصل الرب تعالى أنه يجعل بني إسماعيل حاملي الكتاب والحكمة ووارثي الخلافة الكبرى.

ثم شجّع مَنْ قَبِلَ هذه الدعوة من بني إسماعيل وأما من أصرّ على معارضتها فقد هدّدهم بالعذاب في الآخرة. الآن اتلوا الآيات التالية في ضوء هذا المدخل:

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾
وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ
ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ
وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن
لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا
نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا
لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا
دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ
أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ
ٱلْكَذِبَۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ
بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾
أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ
فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۖ فَقَدْ
ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ
وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ

نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾

21- تحقيق الكلمات وتوضيح الآيات

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾

والخطاب بـ"أَلَمْ تَرَ"، كما أسلفنا في غير هذا الموضع، يأتي للجمع وللتعجّب والأسف، وهنا خوطب به المسلمون، والمراد من "أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ" هم اليهود. وقد أوضحنا في غير هذا المكان أنّ العلاقة بين الصحف السماوية الأخرى والقرآن الكريم علاقة الجزء بالكلّ. إنّ القرآن كتاب من الله تامّ وأما الصحف السماوية الأخرى فهي أجزاؤها ولذا فمن حُمِّلَ أجزاءَ هذا الكتاب التامّ قد عقد الأمل معهم أشدّ أنْ يقبلونه إذا جاءهم ويؤمنوا به ولكنهم على الرغم من ذلك يفضّلون الضلالة على الهدى ويحاولون جهدهم، بدل قبوله، أن يغفل المسلمون هذا الصراط المستقيم الذي أعطوه. وقد أشير في الآية الـ27 السالفة أنّ الله تعالى يهدي بهذا الكتاب إلى طرق الأنبياء والرسل السالفين ولكن الذين يعبدون هوى النفس يحاولون أن يضلّوها ولا يسلكوها. وفيما يلي تفصيل تلك الإشارة.

وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ الآية هذا كلام يسلّي به المسلمون وهو يعني: أنّ الله ليس بغافل عن أعدائكم تلك وهو عليم بهم وبكيدهم وشرّهم فهو يضلّ كل شرّ لهم، ومن ينصره الله ويعصمه فالله حسبه فتقدّموا على ما تسيرون عليه واتّكلوا على نصره.

مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا

لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَـٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾

قد شرحنا كافة ألفاظ هذه الآية في تفسير سورة البقرة. إنها إشارة موجزة إلى تلك الشرور التي كانت اليهود يرتكبونها لكي يذلّوا الرسول أمام الناس ويحقّروا الإسلام ويجعلوه إلى أسفل.

وكلمات "سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا" و"ٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ" و"رَاعِنَا"، كما أوضحناها في تفسير سورة البقرة، كانت كلمات يتداولها العرب في جلساتهم وكانت تدلّ على تقدير المتكلّم ورغبة السامع وقبوله كما نقول بلغتنا: "بجا إرشاد ـهـ" (سبحان اللّٰه، صدقت) و"سر تسليم خم ـهـ" (سمعًا وطاعة) و"سنئے، كيا خوب بات فرمائی" (وأذنوا فقد أحسن) و"نادر نكته ـهـ" (نكتة بديعة) "مكرّر إرشاد هو" (مرّة أخرى) وغيرها من الكلمات التي تداولها العرب لهذه المعاني والدلالات. ولو أنّ هذه الكلمات للإعراب عن التقدير والتشجيع ولكن إذا أرادت فئة أنْ تسيء إلى المتكلّم وتلوي بلسانها فيمكن أن تتحوّل هذه الكلمات التشجيعية إلى الكلمات المضحكة الساخرة فلو أنّ هذه الكلمات تضرّ بالمتكلّم أم لا ولكنها تعين الأشرار على الإعراب عما في ضميرهم وباطنهم. والآن تفهّموا هذه الكلمات بشيء من التفصيل.

فكلمة "سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا" تعني لغة أنّا أذنّا له وأطعناه، ويلفظها العرب حين يريدون أن يعربوا عن قبولهم وطاعتهم وتأهّبهم لحكم كبيرهم وسيّدهم وملكهم، ونجد في العربية مرادفًا لها وهو "طاعة" والتي أوردها القرآن أيضًا. فلمّا حضر أشرار اليهود جلسات الرسول قالوا "سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا" مرة بعد أخرى لإظهار برّهم وسعادتهم ولكنهم كانوا يلوون بها ألسنتهم فيجعلون "سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا" "سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا". وبما أنّ حروف كلتا الكلمتين قريبة المخرج والإيقاع فنجحوا في هذا التحريف وصاغوا كلام الطاعة في كلام العصيان ولم يقدر المخاطَبون على تنبيههم على هذا الشرّ.

و"ٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ" تعني اسمع ما لم يسمع من قبلُ. إنّ هذه الجملة من حسنها أنّ

السامع حينما يسمعها يلفت إلى من بجواره فيلفته إليها بأنها كلام بديع لم تأذن له آذاننا. فالبديهي أنّ هذا الكلام لا يقدّر المتكلّم فقط بل يرغّب الآخرين على تقديره ولكنه إذا لفظ أحدٌ هذه لكلمة وأراد بها الاستهزاء بالمتكلّم فتعني: اسمع لهذا الخطيب البديع الذي يأتي بخرافاته وأساطيره، وهكذا فقد حوّل سياق الجملة هذه الفقرة العالية إلى فقرة دنيّة لا يعبأ بها. ولكن لا يمكن التنبيه عليها لأنّ قائلها بإمكانه أن يؤوّلها بأنه أراد بها التقدير لا الاستهزاء، وبما أنّ الهزء في هذه الفقرة ينشأ من "غَيْرَ مُسْمَعٍ" فدحضها القرآن وأرشد إلى لفظ "ٱسْمَعْ" بإسقاط "غَيْرَ مُسْمَعٍ".

و"رَاعِنَا" تعني: اعتنِ بنا وتوجّه نحونا. ومن حسن جوانبها أنّ المخاطَب إذا لم يسمع لقول حكيم فيطلب من المتكلّم أن يكرّره ليثبت في نفسه فهي تدل على رغبة السامع واشتياقه ولكن أشرار اليهود كانوا يلوون بها ألسنتهم فيحوّلون هذه الفقرة الحسنة إلى الفقرة الوضيعة ويسخرون بواسطتها وذلك إذا أملنا قليلًا في كسر العين في "رَاعِنَا" فجعلنا "رَاعِنَا" "رَاعِيْنَا" (أي من يرعى لنا الإبل والغنم) فقد نزع القرآن هذه الفقرة من جلسات المسلمين وبدّلها بـ"ٱنظُرْنَا" أي آتنا فرصة للاستماع والتفهّم فهذه الفقرة قامت مقام "رَاعِنَا" ولا يغتنم بها القائل تشويه صورة ومعنى الجملة.[1]

وفي النهاية قال إنما يقوم به هؤلاء أهل الكتاب من الشر وسوء الأدب مع الرسول هو نتيجة اللعنة التي ضربت عليهم بسبب كفرهم فقد طردهم الرب تعالى عن بابه فلا تعطى الهداية إلا القليل النادر منهم.

وهناك نكتة أخرى في هذه الآية تستحقّ النظر إليها وهي أنّ هذه الشرور كلها كانت بمثابة السخر والهزء بالنبي ولكن القرآن اعتبرها بـ"الطعن في الدين" الذي يشير إلى أنّ النبي يكون صورة للدين ومظهراً للشريعة فالطعن عليه كالطعن على الدين وسنتحدّث

[1] ليراجع ما كتبنا عن هذه الكلمة ضمن الآية الـ104 لسورة البقرة، ولقد أشرنا إلى فوائد هذا الإصلاح المجلسي.

عن هذه النكتة في تفسير سورة الحديد إن شاء الله تعالى.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾

طمس الشيء: محو آثاره وعلاماته وطمس الوجوه يعني: تسوية شخوص العين والأنف والوجه لأنّ الله وهب هذه القوى لسبب أعلى وأفضل ولكن إذا لم تستخدم لما وهبت له بل العكس من ذلك أنها ثبتت ما يهوي المرء في الضلال فلم تبق الحاجة إليها فتم تسويتها. ولنذكر هنا أنّ هؤلاء الناس سمّوا في سورة البقرة صمًّا وبكمًا وعميانًا. معنى ذلك أنهم على الرغم من هذه القوى لا يقدرون على السمع والنطق والإبصار فهم يستحقّون أن تمحى هذه العلامات عنهم.

وفي تنكير لفظ الوجوه بلاغة تدلّ على الكراهية والتنفّر عنها فقد لعن عليهم في الآية السالفة فالمراد من هذا التنكير أنّ هذه الوجوه الملعون عليها مكروهة لا يريد المتكلّم أن يشير إليها فلم يقل "وجوههم" بل التفت عنهم وقال "وجوهًا" ولمثل هذا التنكير مثال في كلمة "قلوب" في الآية التالية: "أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾". وسنشير إلى بلاغتها في الموقع الذي جاءت فيه.

"فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ" تفصيل لما ذكر أعلاه، ومعنى ذلك: إذا لم يكن هناك فرق بين وجوههم وأكفّهم، وأماميتها كخلفيتها، فلم لا نردّ هذه الأمامية كالخلفية.

وقد تحدّثنا بالتفصيل عن سبب اللعنة على أصحاب السبت وآثارها في آيتي سورة البقرة الـ65-66.

هذه الآية ليست دعوة لليهود بل هي تهديد لهم فلم يأت ذكر الدعوة إلا كإتمام الحجة عليهم. والمعنى أنّ هذه آخر فرصة لتنبّههم إذا أرادوا التنبّه فإن تفتهم هذه الفرصة فلا تعود إليهم أبدًا فالأفضل لهم أن يؤمنوا بهذا الكتاب الذي نزل مصدّقًا لنبوءات

كتابهم وإلّا فليعلموا أنه قد آن لهم أن تطمس وجوههم وأن يلعن عليهم كما لعن على أصحاب السبت بأن أصبحوا قردة خاسئين.

وللّعنة درجات كما للرحمة درجات فاللعنة التي وعدوا بها هي التي استحقّوها بسبب شرورهم فإن وجّه الله لعنةً أدنى منها درجة فهذا يعني أنهم أمهلوا قليلًا والإمهال الذي يعطى قومًا إذا لم يقدّروه تقديرًا فيثبت سببًا للزيادة في عذابهم الأخروي.

وعندما أتلو هذه الآية أتخيّل أن تهديد طمس الوجوه الذي وجّه إليهم يشبه فيه عملُهم بجزائهم فقد ذكر في الآية السالفة أنهم كانوا يستهزءون بالنبي ليًّا بألسنتهم وتغييرًا بوجوههم وتحريفًا للكلمات عن مواقعها كأنهم اعتبروا هذا مهارة امتلكوا ناصيتها وعلى هذا فاستحقّوا أن تطمس وجوههم فمن سلك سبيل الإعراض عن الحق يستحقّ أن يصرف وجهه عن الأمام.

"وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا" تدلّ على أنه لا ينبغي لأحد أن يظنّ أنّ طمس الوجوه وتسويتها صعب على الله فلن يأخذ أيّ أموره وقتًا طويلًا بل إنه يقول مجرد كُنْ فيكون.

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾

المراد بالجبت أعمال السحر والشعبذة والرمل والفأل وما شابهها من الخرافات. وقراءة خطوط الكف (البصمة) أيضًا داخلة فيها.

وقد فصّلنا القول ضمن الآيات 286-288 لسورة البقرة أنّ اليهود وضعوا الكتاب وراء

ظهورهم حين انحطاطهم فوقعوا في مثلها ولقد بكى أنبياؤهم على حالتهم السيّئة هذه بكلمات شديدة، ونقلنا هناك ما احتجنا إليه من الشواهد وإن قمنا بإعادتها لطال البحث.

وقد ناقشنا بالتفصيل كلمة الطاغوت ضمن تفسير الآية الـ256 لسورة البقرة.

الدين أساس توحيد الإله وإنه ليس أحد العقائد فقط بل يقوم عليه الدين كله ويبقى. ومن يحافظ عليه من كل جانب يحافظ على دينه الحقيقي بالرغم من تورّطه في أخطائه الصغيرة الأخرى. وبالعكس من ذلك فمن يخلّ بالتوحيد يهدم الدين الحقيقي فأعماله الأخرى التي تبدو أنها من الدين لا تعود بفائدة فلن يغفر الله الشرك ولكنه يغفر دون ذلك من الأخطاء إذا شاء ولمن شاء. وشرط "من شاء" دليل على ألّا ينبغي لأحد أن يتجرأ على الأخطاء الأخرى لأنّ مغفرتها تبنى على مشيئة الله فلا يقدر أحد على أن يجبره على المغفرة ولا أنّ مشيئته تخلو من الحكمة، كما أنّ الجرأة على السيّئات نوع من الشرك.

ذكرنا هذا المدخل لنبيّن أنّ اللعنة التي استحقّتها اليهود لأنهم هدموا الدين كونهم حاملي الكتاب واستبدلوه بالشرك الذي هو افتراء كبير على الله والذي لن يغفره الله، والسبب في اعتبار الشرك بالافتراء، كما أوضحناه في مكان آخر، أنّ الذين يشركون بالله يدّعون لإثبات كافة أعمالهم الشركية جزءًا من الدين بأنّ هذه الأشياء أمر بها الله تعالى. والبديهي أنّ هذا اتهام بيّن على الله وإذا تعوّدتْ فئة جُعِلَتْ شاهدة على دين الله على أن تفتري على الله فلن تستحق إلا اللعنة.

وبعد هذا المدخل ذكر ثلاثة أنواع من الشرك:

أوّلها: أنهم يعتبرون أنفسهم جماعة مختارة ومصطفاة ويرون أنهم ولد أولياء الله وأنهم بأنفسهم أولياء الله فلا يسألون يوم القيامة ولا يكون لهم عذاب عند الله، ومهما كانت أعمالهم لا يُدخَلون النار أولًا وثانيًا إذا أدخلوها فلا يبقون فيها إلا لوقت قصير، ولقد جعلتهم كبرياؤهم هذه بعيدين عن مسؤوليات العمل والطاعة وأخرجوا أنفسهم من العبودية إلى نطاق الألوهية والحال أنّ الله لم يكتب لهم هذا السلطان في أيّ مكان من

كتابه فمن يُعطَ الولاية تُعطَ من الله، وربطها الله تعالى بالإيمان والعمل والبرّ والتقوى لا بالحسب والنسب فما يعمله المرء يره يوم القيامة فلا يظلمه الله فتيلاً وليس الله بظلّام للعباد فعقيدة كبريائهم التي افتروها ليست إلّا من عند أنفسهم فإن يعزوها إلى الله فهي افتراء كاذب على الله وكفى بهذه دليلًا على كونهم مجرمين يستحقّون العذاب.

وثانيها: أنهم مع كونهم أهل الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون بالأعمال السفلية ويعملون عليها، ولنعلم عن الأعمال السفلية أنّ أغلبها تتعلّق بالقوى الشيطانية والأرواح الخبيثة وهي التي سمّيت بالطاغوت فمن يصرّ على هذه الأعمال يعتبر الأرواح الخبيثة مؤثرة بالذات وثانيًا يرتكب أعمالًا تخالف الشريعة بل تشبه بالشرك لعقد علاقته بها واستعمالها لأهدافه وهي بالتالي تهدم مبنى الإيمان والعمل كليهما، ولينظر ما كتبناه ضمن هذا المبحث في تفسير سورة البقرة.

وثالثها: أنهم يعينون الكفّار والمشركين دون المؤمنين ويعتبرونهم أهدى من المؤمنين. مضى هذا المبحث في سورة البقرة وآل عمران.

لقد عميت اليهود في معارضة الإسلام إلى حدّ أنهم فضّلوا مشركي مكة على المسلمين ويحتالون على معارضتهم بتعاليم الإسلام ورخصه التي كانت تخالف بدعهم وتشديداتهم كمثل حالة الحدث والجنابة فقد رخّص فيها الإسلام بالتيمم إذا لم يوجد الماء فجعلوها وسيلة للفتنة وبدأوا يقولون إنّ الدين الذي يسمح بالصلاة في حالة الجنابة بمجرّد ضرب اليد على الأرض كيف يمكن له أن يكون سماويًّا فما يسلكه المشركون أفضل منه وأطهر. ولنتذكر هنا أنّ فقهاء اليهود قد شدّدوا بنسبة الطهارة بأنّ المرء يبقى كمن لا مساس له في حالة الجنابة. ودع الجنابة وحدها بل يبدو من الإنجيل أنّ فقهاء اليهود اعترضوا على أصحاب المسيح وأتباعه أنهم ربما يأكلون الطعام بدون غسل الأيدي وتنظيفها وعلى هذا اعتبرهم المسيح قبورًا مكلوسة فكما تكون القبور مكلوسة ولكنها تحوي في داخلها عظامًا بالية كذلك

هؤلاء هم بيض من الظاهر ولكنهم سود من الداخل لادّخارهم السحت وأكلهم الباطل. وعين نفسيّة اليهود برزت ضدّ المسلمين فقد كانوا صابرين على المشركين ولكنهم ما رضوا بأن يتصبروا على المسلمين. والبديهي أنّ نصر الحق كما هو عين الحق كذلك نصر الشرك هو عين سلوكه.

ثم قال إنّ هؤلاء هم الذين لعنهم الله تعالى ومن يلعنه الله فلا مولى له ومن يلعنه الله فيقطع دابره والشجرة التي يقطع دابرها لا تخضرّ ولو تسقيها سبعين مرة.

أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذَا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾

والمراد بالملك ملكوت الله وأما الناس فأريد بهم المسلمون في هذا الموضع.

والمعنى هل لهم نصيب في ملكوت الله فيعطونه لمن شاؤوا ويحرمونه من شاؤوا، ولعل على هذا النصيب يريدون أن يحرموا المسلمين فضلَ الله ونعمتَه؟ وإذا لم يكن كذلك، والمعلوم أنه ليس كذلك، فما الفائدة لكل ما يتفوّهون هؤلاء فهل يمكن لهم أن يغلبوا قدر الله تعالى.

ثم كشف السرّ الحقيقي بأنّ كل ما يفعلونه ناتج عن الحسد البغيض الذي يخفونه ضد المسلمين فهم يموتون غضباً على أنّ النبوة التي كانت خاصة ببني إسرائيل كيف أخرجت عنهم وأعطيت لبني إسماعيل وهم لا يعلمون أنّ النبوة والشريعة من أفضال الله تعالى التي ينعم بها على من يشاء ويحرمها ممّن يشاء فالحسد على فضل الله ثم البروز تحت وطأة ذلك الحسد عينُ القتال ضدّ الله سبحانه وتعالى. فإن قاموا ليقاتلوا الله فليقاتلوا فقد أعطينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة كما أنعمنا عليهم تلك الملكوت الكبرى أي ليكيدوا ما شاؤوا فإنا قد أنعمنا عليهم.

فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ الآية وإذا جاء "فقد" في الجمل الإنشائية والشرطية فيكون

هناك حذف قبل تلك الجملة يبيّنه ما يأتي بعدها فالمراد هنا هو أنهم إذا عارضوا هذا النبي حسدًا لبني إسماعيل فليحسدوا ما شاؤوا فقد وهبنا لآل إبراهيم الكتاب والحكمة والملك العظيم كذلك.

ولو أنّ "ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ" عامّة ولكن القرينة تدل على أنّ المراد منهم بنو إسماعيل لأنّ هذه الجملة كتنبيه لبني إسرائيل فلا يمكن لهم أن يكونوا منهم وإذا لم يكونوا منهم فلم يبق المراد منهم سوى بني إسماعيل ثم ذكر هنا إعطاء الكتاب والحكمة والملك وقد أعطيتهم هذه بعد أن لعن على بني إسرائيل فلن يمكن أن يكونوا ضمنهم. وكذا يثبت من التوراة أنّ اليهود نسبوا أنفسهم إلى إسحاق بدل نسبتهم إلى إبراهيم فقد جاء فيها: "ولا لأنهم من نسل إبراهيم هم جميعًا أولادٌ بل بإسحاق يدعى لك نسل". وعلى العكس من ذلك أنّ العرب نسبوا أنفسهم إلى إبراهيم لأنّ إبراهيم أقام بها وبنى بيت الله بها وأدّى بها كافة المناسك.

فيبدو من هذا الأسلوب أنه لا ينبغي لبني إسرائيل أن يزعموا أنهم من آل إبراهيم بل أنّ هذا الشرف يتمّتع به بنو إسماعيل أيضًا والثاني أنه يشير إلى وعد الله الذي عقده مع إبراهيم والذي كان متعلقًا بصراحة بإسماعيل وبنيه وقد جاء هذا الوعد في التوراة كما يلي:

"ونادى ملاكُ الربّ إبراهيم ثانية من السماء وقال: بنفسي أقسمتُ، يقول الربّ: بما أنك فعلت هذا وما بخلت بابنك وحيدك، فأباركك وأكثّر نسلَك كنجوم السماء والرمل الذي على شاطئ البحر. ويرث نسلُك مُدُنَ أعدائه، ويتبارك في نسلك جميعُ أمم الأرض لأنك سمعتَ لي".[1]

فيتضح من بيان التوراة هذا أنّ الله قد عقد ميثاق البركة مع إبراهيم حينما نجح في ذبح وحيده إسماعيل فليكوننّ هذا الميثاق بإسماعيل وبنيه.

[1] التكوين، 12/15-18

يشمل هذا الميثاق ثلاثة أشياء:

1. أنّ الله يجعله أمة عظيمة.
2. وأنه ينال الفتوح الكبرى وأنه يغلب الأعداء.
3. وأنّ كافة أقوام الأرض تتبرّك به.

وقد تمّت هذه الوعود الثلاثة ببعثة محمّد العربي صلّى الله عليه وسلّم فظهرت ببعثته أمة عظيمة غلبت الأعداء وبورك ببعثته العالم كلّه في الدين وفي الشريعة.

وهذا بروز فعلي لذلك الوعد الذي أشير إليه في هذه الآية. ولو أنّ هذا الوعد لم يتمّ حينما نزلت هذه الآية ولكن قد فصل عن تمامه فعبّر عنه بأسلوب كأنه تمّ فعلًا. ولقد مضت في القرآن عدّة أمثلة لهذا الأسلوب ونكتفي هنا بذكر مثال واحد. قال تعالى:

"وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾".

ألقى موسى هذا الخطاب على قومه حينما كانوا يدعونهم إلى الهجوم على الأرض المقدّسة، والظاهر أنه لم يظهر شيء من هذه الأمور حين ذلك الوقت ولكن الله قد فصل عنها وأنه قد أخبر موسى بهذا الحكم فذكره موسى بحيث أنّ هذا الوعد قد تمّ.

وتخرج نكتة دقيقة من هذه الآية أنّ السلطان والخلافة نتائج للكتاب والسنة فحينما يعطي الله قومًا كتابه والحكمة وهم يقبلونه بإخلاص النية فيعطون الخلافة أيضًا. ولو أنّ هذه الحقيقة ذكرت في غير موضع من القرآن ولكنها ذكرت هنا خاصة فمن له ذوق سليم للغة العربية يعرف البلاغة المكنونة في تكرار "ءَاتَيْنَآ" فقد كانت اليهود يحسدون المسلمين لأنهم كانوا عارفين بأنهم إذا نزل فيهم القرآن (كتاب الله) فتتبعه الحكومة ولذا قال: إننا لم نعطهم الكتاب والحكمة فقط بل أعطيناهم الحكومة أيضًا

وهي على الرغم من أنوفكم.

فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾

هذه الآيات تتعلق ببني إسماعيل فقال إنّ جماعة منهم قد قبلت الكتاب والحكمة فآمنت به ولكن هناك جماعة أخرى بقيت قائمة على اعتراضها عنه فقال عن هذه الجماعة إنها إذا بقيت على كفرها فيدخلها الله في النار التي لا يخفّف عنها العذاب وكلما نضجت جلودها ألبسوا جلودًا أخرى جديدة ليتم تكرار عذابها الأليم. والله عزيز فلا غالب عليه ولا عاصم له وهو حكيم فلا يخلو أيّ أعماله من العدل والحكمة.

وأما الجماعة التي آمنت فقال عنها: إنها تُدْخَلُ الجنة التي تخلد فيها مقامًا وتكون لها حور طيّبات طاهرات. وشرحنا كافة أجزاء هذه الآية حين تفسير سورة البقرة.

ولقد أوضح القرآن حيث ذكر منته العليا هذه على بني إسماعيل أنّ هذه المنة ترجع إلى الإيمان والإسلام فهي ليست بسبب نسبهم وحسبهم فلا يعطى نصيبًا من هذه المنة من بين بني إسماعيل إلا مَنْ يؤمن بهذا القرآن وصاحبه عليه أفضل الصلوات والتسليم وأما مَنْ لم يؤمن بهما فسيدخلون جهنم من إسرائيل كانوا أم من إسماعيل فقد جاء في سورة الجمعة:

"هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾".

وفي الجزء الأخير من الآية أشير إلى كفّار قريش الذين لم ينضمّوا إلى مَنْ قَبِل هذه

النعمة فنجد في ألفاظها لمسة من التنبيه الذي لم يأت إلا ليعرف بنو إسماعيل أنّ الله أسبغ عليهم نعمة كبرى ولكن هذه النعمة ليست إلّا لمن يقدّرها فمن لم يقدّرها فلا نصيب لهم فيها على أساس كونهم من بني إسماعيل. وبما أنّ اليهود قد وقعوا في مثل هذا سوء الفهم فحُرِمُوْا فضلَ الله فنبّه القرآن بأول وهلة بني إسماعيل بهذا الخطأ الفاحش.